

جمالية السرد المحذوف وتداعياته البلاغية في سورة يوسف عليه السلام

محمدحسن أمراي^١، محمدتقي زند وكيلى^٢

١. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة ولايت، إيرانشهر، إيران

٢. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة سيستان وبلوچستان، زاهدان، إيران

(تاريخ الاستلام: ٢٤/٦/٢٠١٨؛ تاريخ القبول: ١٣/٣/٢٠١٩)

الملخص

إنّ من ألقى نظرة عابرة على منهج النظام القصصي في القرآن الكريم ليرى توزيع عناصر القصة الواحدة في سور شتى؛ فعلى سبيل التمثيل، نجد أجزاء من قصة موسى عليه السلام موزّعة بين عدّة سور، منها: البقرة، القصص، طه وغيرها من السور الكريمة، اللهم إلا أن الاستثنا الوحيد يتمثل في قصة يوسف عليه السلام المنسجمة؛ حيث نلاحظ في السورة المعنونة باسمه الشريف نموذجاً رائعاً للبناء القصصي المتكامل بكلّ ما في القصة من أركان. هناك في هذه السورة المباركة مظاهر من السرديات الروائية المحذوفة في مشاهد منوّعة تعتبر إحدى أهمّ الظواهر النحوية الوظيفية التي تجمع بين السمة النحوية والسمة البلاغية فيها. من هذا المنطلق، تسعى هذه الدراسة القائمة على المنهج الوصفي والتحليلي إلى الكشف عن مشاهد جمالية للسرديات الروائية المحذوفة وتداعياتها البلاغية وأثرها الفني في تكوين قصة يوسف عليه السلام مركزاً فيها على الأغراض البلاغية التي يتركها هذا الحذف على النصّ القرآني. ومن أبرز ما حصلنا عليه في هذه العجالة هو أن السرد المحذوف المشارك في تكوين القصة يكشف عن أغراض بلاغية وفتية هامة تبرز في مادّتين أساسيتين هما: أولاً؛ التعبير عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة. ثانياً؛ الإيجاز بحذف الجملات التفسيرية والجوابية والحوارية.

الكلمات الرئيسية

القصة القرآنية، السرد المحذوف، البلاغة، سورة يوسف عليه السلام.

مقدمة

تتفاوت القصص القرآنية والقصص الأدبية الفنية، فالقصة القرآنية «ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه - كما هو الشأن في القصة البشرية الفنية - إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكريم الكثيرة المؤدية إلى تحقيق هدفه الأصيل» (النوافعة، ٢٠٠٨: ١٥). وهي «إحدى وسائله لإبلاغ الدعوة وتثبيتها، شأنها في ذلك شأن وصف مشاهد يوم القيامة وتصوير النعيم والعذاب وطرق إثبات البعث والنشور» (قطب، ١٤١٢: ١١٩). بإمكاننا أن نقول إنَّ القرآن الكريم بحر واسع مترامي الأغراض فلا يدرك كله إلا من هداه الله تعالى؛ ولكن الغرض الرئيس من قصصه في الوهلة الأولى يدور حول الغرض الديني الذي يتمثل في الإيمان والاعتقاد بالله تعالى وهدفها الغائي تربوي في الغالب الأعم بحيث يؤثر في الإنسان عبر إثارة وجدانه وتحريك عواطفه الدينية، ولكن بعض الناس قد لا يستطيع استنتاج العبرة من القصة وهي تقدم للبشر النموذج المثالي للسلوك والأخلاق والقُدوة المتعالية عن الدنيا وأخطاء البشر. وهذا السلوك ليس سلوكاً شخصياً، بل هو «سلوك مثالي واحد في التصرفات والمعاملات يدل على الرقى في إرشاد الناس بالحكمة والموعظة الحسنة وإعطاء المجال كافياً للتفكير وأعمال العقل» (قطب، ٢٠٠٢: ٢٥) فضلاً عن جدية الأمور التي جاء القرآن الكريم يدعو إليها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ﴾ (الإسراء/٩)، إنَّ القصة من الفنون الأدبية الرفيعة في القرآن الكريم «تتعرض للنفس الإنسانية الذكية في شتى الأطوار والمراحل المختلفة من العمر الزمني والعقلي والعاطفي، ممَّا أضفي عليها ثراءً هي الطريقة التي جاء بها القرآن الكريم وما أسدله عليها من الإعجاز البلاغي الذي أعجز أسلوب البشر» (مشيش، ٢٠٠٨: ١٥٦). لقصة يوسف عليه السلام مكانة سامية في الوجود الإنساني وذات أهمية كبرى تجعلها من أحسن القصص الواردة في القرآن الكريم لتمييزها عن غيرها من القصص واشتمالها على العديد من العبر المتعددة الحاصلة من تلك المعاناة المرافقة لمراحل حياة يوسف عليه السلام من ذلك صفة الحسد التي اتصف بها إخوانه وتمردهم على أبيهم وتمسكه بالرفض بالنسبة للحدث الذي أنجز عنه إدخاله السجن وعملية الصفع عند المقدرة لإخوانه الظالمين والمبغدين له عن أهله وهو ما يزال صعباً لا يقدر على اجتياز الصعاب والمحن، ممَّا جلب عليه الكثير من الويل والأتعاب والعقبات في مراحل حياته الأولى وكل ذلك لم يترك في نفس سيدنا يوسف عليه السلام صورة الانتقام.

هذه المواقف التي تزخر بها قصة يوسف ﷺ المتمثلة في رموز تحمل في طياتها فضائل أخلاقية عالية كالوفاء والطهر والأمانة والعفة وغيرها من الموضوعات، هي التي دفعتنا إلى دراسة هذه السورة ومكوناتها الفنية والبلاغية من منظار الحديث. وبالتعمق في قراءة السورة واستخراج أبعادها الفنية والبلاغية ناتجةً عن السرديات القصصية المحذوفة في السورة، عينا نطاق البحث، فقسمناه إلى أجزاء عدة: في البداية عرضنا مدخلاً إلى البحث للتعرف على السورة تعريفها وتسميتها وفضلها ومحور موضوعاتها، وبعد هذه التمهيديات انتقلنا إلى صلب الدراسة واستعرضنا الجوانب من المحذوفات السردية المؤدية إلى الإعجاز البلاغي القرآني في السورة، وفي نهاية المطاف قدّمنا نتيجة تبين صفة ما حصلنا عليه.

الدراسات السابقة

لقد اهتمّ العلماء اهتماماً فائقاً بالقرآن الكريم وتأسيساً على هذا ألفوا أعمالاً قيّمة تستحقّ الذكر لا تعدّ ولا تحصى، منها: «الفن القصصي في القرآن» لمحمد أحمد خلف الله وتطرّق فيه إلى المسائل الفنيّة وأسلوب القصص في القرآن وبعض المصريين والعرب اتهموه بالكفر؛ لأنّه يدعي أنّ القرآن يتناول القصة بأسلوب أدبيّ وعاطفيّ. و«الأسلوب البلاغي للقرآن الكريم» لمحمد بولحية، رسالة تمزج بين البديع والفواصل القرآنية لتحديد الخطوط العريضة للأسلوب القرآني وجماليته. و«البعد التصويري للقرآن سورة يوسف ﷺ نموذجاً» للباحثة مريم سعود، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير، حيث درست الباحثة فيها التصاوير الفنيّة في القرآن ولا سيما سورة يوسف ﷺ. وقد طبعت كتب قيمة أخرى، عنوانها: «القصص القرآني في مفهومه ومنطوقه» لعبد الكريم الخطيب، و«بحوث في قصص القرآن» للسيد عبدالحافظ عبد ربّه، و«التصوير الفني في القرآن» و«في ظلال القرآن» لسيد قطب، و«إعجاز القرآن وأثره في تطوّر النقد الأدبي» لعلى مهدي زيتون، و«إعجاز القرآن» لمصطفى صادق الرافعي، و«اللون ودلالته في القرآن الكريم» لنجاح عبدالرحمن المرازقة ودرس فيها الباحث اللون ودلالاته المختلفة وتأثيره البالغ على النفس الإنسانية والبلاغة. هناك كتب أخرى بالعربيّة والفارسيّة، مثل: «جلوه هاي از هنر تصوير آفريني در قرآن» لحميد محمد قاسمي، و«دراسات فنيّة في قصص القرآن» تأليف الدكتور محمود البستاني ويلمح في كتابه هذا إلى بعض خصائص القصص القرآنيّة بصورة عابرة، وكتاب للدكتورة عايشة عبد الرحمن بنت الشاطئ الذي ترجمه حسين صابري إلى الفارسيّة، عنوانه: «إعجاز بياني قرآن» وكتب كثيرة أخرى. كما ألفت مقالات جيّدة كثيرة

في المجالات القرآنية منها: «تصوير اهل كتاب در قرآن كريم» لعلي سليمي أنموذجاً، و«إعجاز، اطناب ومساوات در سورة يوسف ﷺ» مقال كتبه الباحثان الإيرانيان فراس دهداري وميسا كاظم دهداري باللغة الفارسية. كما درسنا كذلك هذان المؤلفان أنفسهما مقالين آخرين عن هذه السورة المباركة، عنوانهما: «التشبيه في سورة يوسف ﷺ» و«الحقيقة والمجاز في سورة يوسف ﷺ» وغيرها من الدراسات المتناثرة في ثايا الكتب والمجلات المنشورة في المواقع الإلكترونية التي ربّما جاءت بأشياء مهمة عن هذه السورة وفاتتها أشياء أخرى لا تقل أهمية عنها، ورغم ذلك لم نعتز على دراسة شاملة وافية لموضوع المقالة: جماليات السرد المحذوف في سورة يوسف ﷺ وتداعياتها الفنية والبلاغية.

الحقيقة أنّ المصادر التي تناولت سورة يوسف ﷺ، لم تلتفت إليها من منظار علم الجماليات والأسلوبية اللهم إلا ما كتبه على الطاهر عبدالسلام في كتابه المعنون «الإعجاز البلاغي في قصة يوسف ﷺ»، حيث يشمل هذا الكتاب وجوه الإعجاز القرآني المختلفة وخفاياه من ناحية اللغة والعلم مصوراً لمحات من جماليات السورة وشواهد البلاغية، فلذلك رغبتنا في مناقشة مكانة هذه القصة الهامة في خريطة القصص القرآنية لتحلّ مكانها الطبيعي بين القصص القرآنية الجميلة عبر التطرّق إليها. هذا على ما في القصة من المعلومات ما تصوّر لنا الحياة الاجتماعية وعاداتها المنتشرة في زمن النبي يوسف ﷺ خير تصوير، كما تعطينا تصويراً صادقاً من المرأة المصرية آنذاك ونفسياتها وعلاقاتها العاطفية.

الأسئلة والفرضيات

يمكن تلخيص الأسئلة التي نريد الوصول إليها من خلال هذه الدراسة فيما يلي:

١. ما كيفية بناء القصة وإطارها الشكلي في قصة يوسف ﷺ؟
٢. ما وجوه الحذف البلاغي في هذه السورة المباركة؟
٣. ما أهمّ الميزات البلاغية والفنية التي تكشف عنها السرديات المحذوفة في هذه السورة؟
والفرضيات التي يدور حولها هذا المقال هي:

١. إنّ قصة يوسف ﷺ جاءت في السورة عبر مجموعة من المشاهد التي ترتبط فيما بينهما ترابطاً عضوياً، فالانتقال من موقف إلى موقف آخر في القصة يتمّ - غالباً - دون رابط سرديّ غير أنّ الارتباط برابط السببية بين المشاهد، يغني عن السرد المحذوف ويقوم بدوره ويخلق في الوقت ذاته حالة من الحركية التعبيرية.

٢. يأتي الحذف والإيجاز في نوعين هما: ١. الإيجاز في اللفظ. ٢. الإيجاز بالحذف، ويكشفان عن القضايا الجمالية والقيم التعبيرية البلاغية في صورة من أجمل صورته وأكثرها إيحاء في هذه السورة.

مكوّنات الإطار النظري للبحث

أهمية الدراسة والحاجة إليها

وتتلخص أهمية الدراسة الحالية للأسباب الآتية وهي:

١. الرغبة في الكشف عن صورة شخصية يوسف ﷺ الجليلة التي تظهر بشكل خاص وبارز في هذه القصة.

٢. عدم وجود الدراسات التي تفي بهذه السورة حقّها من الناحية البلاغية والفنية.

٣. كشف بعض خصائص الأسلوب القرآني ومكمن العذوبة فيه.

٤. افتقار الدراسات السابقة لدراسة قصة يوسف ﷺ؛ بحيث إذا ما أمعنا النظر إلى الدراسات السابقة المتعلقة بسورة يوسف ﷺ فقد وجدناها قليلة وتركز في أكثرها على الكليات التي تتناول في مضمونها السورة دون الخوض في مكانها ومن تلك الدراسات، دراسة الباحثة الإيرانية ميسا كاظم دهداري، باللغة الفارسية المعنونة بـ«إيجاز، اطناب ومساوات در سورة يوسف» التي جاءت صغيرة متاثرة لا تزيد على أربع صفحات وهي موجودة على المواقع الإلكترونية.

منهج الدراسة

اعتمدنا في دراستنا على المنهج الوصفي والتحليلي الذي يعتبر مناسباً لدراسة نص السورة دراسة تحليلية، مقتنصاً الدلالات الخاصة بالحذف البلاغي وأنواعها في السورة ومميزات خطابها والنظر في أبعادها الفنية وتوظيفها لخدمة الدراسة. كما استفدنا من المنهج الفني الذي: «يعدُّ من المناهج الأدبية لدراسة جماليات النصوص النثرية في التأريخ الأدب العربي» (مشكين فام، ١٣٨٨: ١٢). قبل أن نفرّد الحديث هنا عن الإعجاز القصصي، فالدراسة تقتضي التعريف بالسورة وتسميتها وفضلها وبكلّ المجالات التي ستساعدنا على دراسة السورة والكشف عن قيمها التعبيرية والجمالية والفنية:

تعريف السورة

«سورة يوسف مكيّة وآياتها إحدى عشرة ومائة مكيّة وقال المعدل عن ابن عباس غير أربع آيات نزلن بالمدينة ثلاث من أولها والرابعة: «لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين». عدد آياتها مائة وإحدى عشرة آية بالإجماع» (الطبرسي، لا تا: ٣١٥/٥). والسورة «مكيّة بجملتها، على خلاف ما ورد في المصحف الأميري من أن الآيات (١، ٢، ٣، ٧) منها مدنيّة. ذلك أن الآيات الثلاث الأولى هذا نصها: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.. وهذه الآيات هي مقدمة طبيعية لما جاء بعدها مباشرة من البدء في قصة يوسف ﷺ.. ونص الآية التالية في السياق هو: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ: يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ. رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ...﴾. ثم تمضي القصة بعد ذلك في طريقها إلى النهاية» (قطب، ١٤١٢: ١٩٤٩/٤).

«هذه السورة مكيّة، نزلت بعد سورة هود، في تلك الفترة الحرجة بين عام الحزن بموت أبي طالب وخديجة سندی رسول الله ﷺ وبين بيعة العقبة الأولى، ثمّ الثانية التي جعل الله فيهما لرسول الله ﷺ وللعصبة المسلمة معه وللدعوة الإسلاميّة فرجا ومخرجا بالهجرة إلى المدينة. وعلى هذا فالسورة واحدة من السور التي نزلت في تلك الفترة الحرجة في تاريخ الدعوة وفي حياة الرسول ﷺ والعصبة المسلمة معه في مكة» (قطب، ١٤١٢: ١٩٤٩/٤).

تسميتها

سُمِّيَتْ بسورة يوسف ﷺ: «لأنها ذكرت قصة نبي الله يوسف ﷺ كاملة دون غيرها من سور القرآن الكريم ولم يرد في سور القرآن الكريم تفصيل قصة من القصص باستقصائها من أولها إلى آخرها غير قصته ﷺ، وقد خصت السورة بها من غير شركة ما من غيرها» (الطباطبائي، لا تا: ٣٩/١١). جميع آيات هذه السورة سوى الآيات القليلة التي تقع في نهاية السورة تبين قصة نبي الله يوسف ﷺ لذلك سُمِّيَتْ بإسمه. ولما كانت قصة يوسف جاءت مرتبة مرة واحدة بجميع تفاصيلها في موطن واحد كانت - نحن نزعم القول - هي القصة الأحسن، والله أعلم.

محور موضوعاتها

سورة يوسف ﷺ إحدى السور المكيّة التي تناولت قصص الأنبياء ﷺ وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله «يوسف بن يعقوب» وما لاقاه من أنواع البلاء ومن ضروب المحن والشدائد من إخوته ومن الآخرين في بيت عزيز مصر وفي السجن وفي تأمر النسوة حتى نجّاه الله من ذلك الضيق والمقصود بها تسليّة النبيّ بما مرّ عليه من الكرب والشدة وما لاقاه من أذى القريب والبعيد.

فضل السورة

هناك في الروايات الإسلامية فضائل مختلفة في تلاوة سورة يوسف ﷺ ، روي «أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: علموا أرقاءكم سورة يوسف ﷺ فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هوّن الله تعالى عليه سكرات الموت وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلماً. وروي أبوبصير عن أبي عبد الله ﷺ قال: من قرأ سورة يوسف ﷺ في كلّ يوم أو في كلّ ليلة بعثه الله يوم القيامة وجماله مثل جمال يوسف ﷺ ولا يصيبه فزع يوم القيامة وكان من خيار عباد الله الصالحين» (الطبرسي، لا تا: ٢١٥/٥) وفيها كذلك عجائب من البلاء والفوائد؛ لأنّه كلّ من ذكر فيها من الأشخاص كانت نهايتهم سعيدة فهي محل فأل. قال ابن عطاء لا يسمع سورة يوسف ﷺ محزون إلا استراح إليها. وقال القرطبيّ ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد وفي وجوه مختلفة وبألفاظ متباينة، على درجات البلاغة والبيان وذكر قصة يوسف ﷺ ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ولا على معارضة غير المكرر والإعجاز واضح لمن تأمّل. وصدق الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف/١١١). وممّا يلزم ذكره أنّه ورد في عدد من الأحاديث، النهي عن تعليم هذه السورة «للنساء»، ولكن سند هذه الروايات بشكل عام لا يعتمد عليه، إضافة على ذلك فقد ورد في بعض الروايات الأخرى خلاف ذلك، حيث ترغّب في تعليم هذه السورة للعائلة. وبعد هذا كله فإنّ أمعنا النظر في آيات هذه السورة ندرك أن ليس هناك أية نقطة سلبية فيها بالنسبة للنساء وليس هذا فحسب بل إن ما جرى لامرأة عزيز مصر، درس فيه عبرة لجميع النسوة اللاتي يبتلين بالوساوس الشيطانية.

الإطار التطبيقي للبحث

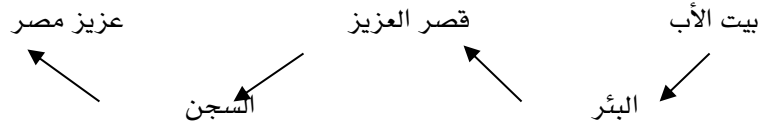
جمالية السرد المحذوف وتداعياتها البلاغية في السورة

إنّ الوقوف على مواطن السرد المحذوف المؤدية إلى الإيجاز البلاغيّ في قصة يوسف عليه السلام والإشارة إلى ما تحمله من دلالات فنية وبلاغية أمر متعذر، فكلّ جملة لا في هذه السورة مباركة فحسب، بل في كلّ القرآن تحتاج إلى وقفة طويلة، دراسة وتحليلاً، فهماً وتدبراً، فلذلك ركزنا على بعض مواطن الحذف الهامّة في القصة، لعلنا نعثر على مثلاً لما يزخر به النصّ القرآني من الإيجاز البلاغيّ الذي يمثل جانباً من جوانب إعجاز القرآن الكريم. من هنا كان تناولنا قضية السرد المحذوف في القصة يقوم على التقاط بعض المشاهد منها (ثمانية المشاهد نموذجاً) ومن ثمّ دراستها دراسة تحليلية تبين دور الحذف وأنواعه وأسبابه في صياغة القصة صياغة فنية رفيعة مشيراً إلى تداعيات هذا الحذف البلاغية والفنية؛ إذ أنّ ما نريد إظهاره وبيانه في هذا المقال هو الجانب البلاغي لنكشف بعضاً من المزايا التي تكمن وراء التراكم المقصورة أو المحذوفة في الآيات الكريمة للسورة هذه:

المشهد الأول: البدء بقضية رؤيا النبيّ يوسف عليه السلام دون التمهيد:

اشتملت قصة النبيّ يوسف عليه السلام على كل عناصر القصة الأدبية كما اشتملت على الكثير من المشاهد التصويرية الجميلة، بحيث تجعل القارئ يرى فعلاً ما حدث وكأنه ماثل أمام ناظره. و«تسير أحداث القصة بشكل مدهش، فالأصل أن تكون محبة الأب لابنه شيئاً جميلاً؛ لكن مع يوسف تحول هذا الحب، لأن جعله إخوته في البئر، ثم إن الوجود في البئر أمر سيء؛ لكن الله تعالى ينجي يوسف بأن التقطه بعض السيّارة ثم كونه في بيت عزيز مصر كان من المفروض أن يكون أمراً حسناً لولا ما همّت به امرأة العزيز، ثم السجن يبدو سيئاً لكن الله تعالى ينجيه منه ويجعله على خزائن الأرض ثم يصبح عزيز مصر وكأنّ

الرسم البياني للسورة يسير على النحو التالي:



وقد أسهبت السورة في ذكر صبر يوسف على محنته بدءاً من حسد إخوته له وكيدهم ثم رميه في الجبّ ومحنة تعلق امرأة العزيز به ومرادته عن نفسه ثم محنة السجن بعد الرغد

الذي عاشه في بيت العزيز ولما صبر على الأذى في سبيل العقيدة وصبر على الضر والبلاء نقله الله تعالى من السجن إلى القصر وجعله عزيز مصر وملكه خزائن الأرض وجعله السيد المطاع والعزيز المكرم» (www.noo-problems.com).

الحلقة الأولى من هذه القصة المليئة بالأحداث الحية الطبيعية، تبدأ من رؤيا يوسف إلى نهاية مؤامرة إخوته عليه، ووصوله إلى مصر. ونحن سنواجه النصوص الواردة فيه مباشرة، بعد ذلك التقديم السابق للسورة، وفيه غناء: ﴿الر، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾... ألف. لام. راء.. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.. «هذه الأحرف وما من جنسها وهي قريبة للناس متداولة بينهم. هي هي بعينها تلك الآيات البعيدة المتسامية على الطاقة البشرية. ويبدو جليا أن الذي يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون بشراً، فلا بد عقلاً أن يكون القرآن وحياً. والعقل هنا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلالاتها القاهرة. ولما كان جسم هذه السورة قصة فقد أبرز ذكر القصص من مادة هذا الكتاب، على وجه التخصيص: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾... فبايحاتنا هذا القرآن إليك قصصنا عليك هذا القصص - وهو أحسن القصص - وهو جزء من القرآن الموحى به. ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.. فقد كنت أحد الأميين في قومك، الذين لا يتوجهون إلى هذا النحو من الموضوعات التي جاء بها القرآن، ومنها هذا القصص الكامل الدقيق» (قطب، ١٤١٢: ٤/١٩٧٠).

هذه المقدمة المشار إليها إشارة البدء إلى القصة. ثم يرفع الله تعالى الستار عن المشهد الأول، لنرى يوسف الصبي يقص رؤياه على أبيه: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف/٤) حيث تبدأ قصة يوسف بذكر قضية الرؤيا هكذا دون التمهيد أو المقدمات غالباً ما تحفل بمثلها القصص الأدبية وفي حذفها هنا لمحة بليغة على أنها قضية جوهرية وحوار رئيسي في البناء القصصي وبذلك يكون البدء بذكرها أدعي إلى لفت النظر إليها وهذا ما لا يكون لو أن ذكرها سبقَ بتمهيد أو مقدمات طويلة أو قصيرة. وقول النبي يوسف ﷺ: "إِنِّي رَأَيْتُ" ثم توكيده بـ"رَأَيْتُهُمْ" ليس فيه ما يشير إلى أن ما رآه كان على وجه الحقيقة من "الرؤية" أو أنه في المنام من "الرؤيا" ذلك أن الفعل "رأيت" يصلح في حالتي: "الرؤية" و"الرؤيا". ولكن يأتي قول حضرة يعقوب: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ

رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴿يوسف/٥﴾، إذ لم يقل: "رؤيتك" ليدلنا على أن الرؤيا كانت في المنام، ولو ذكر النبي يوسف ﷺ ذلك لكان في قول أبيه تكرار لما سبق ذكره، فكان حذف السابق لدلالة ما سيأتي عليه وهذا سمة أسلوبية قصصية في سورة يوسف ﷺ كما سيتضح لاحقاً وربما قيل: لماذا لا يذكر الأمر أولاً ثم يحذف تالياً فينتهي بذلك التكرار؟! إن ذلك سيفقد عنصر التشويق في القصة ويلغي إثارة التساؤل وتحفيز الفكر ويقوم بتحنيط المخيلة وتلك عناصر مهمة ومؤثرة في البناء الفني للقصة وكلما كان البناء الفني جيداً كان أقدر على إيصال الفكرة وتحصيل الفائدة في الحوار الذي جرى بين يوسف وإخوته: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (يوسف/٥). عندما نتقصى ما في الآية من التوظيف المعنوي، نجد أن النبي يوسف ﷺ ضمّن في الآية خلال الكلمات والعبارات الجامعة والمقتضية، القضايا والمعاني المطروحة الكثيرة وهي التي تسمى بإيجاز قصر في المصطلح البلاغي إذ توسع في المعنى واكتفى بالتعبير عن المعنى الكثير باللفظ القليل، فمن هذا المنطلق، عندما نعمن في القصة هذه يظهر لنا أنه جمع بين التحذير من إخوته من جانب وعداوة الشيطان للإنسان من جانب آخر وذلك في سياق موجز ما يغني عن طول الشرح وكثرة التفصيل. لا يفوتنا أنه كان لزاماً على يوسف ﷺ أن يخلص نفسه من هذه الهاوية التي تتمثل في صورة العداوة بين الشيطان وإخوته ﷺ. ولعلنا نرى أن تحذير سيدنا يعقوب ابنه يوسف من إخوته إنما جاء مقتضياً موجزاً، إذ لم يأت على ذكر الأسباب التي ستدفعهم - وهم إخوته - إلى الكيد له وإظهار العداوة التي ستجلي قريباً مع متابعتنا للقصة فيما بعد.

المشهد الثاني: ما جرى بين يوسف ﷺ وإخوته:

كان يوسف صبيّاً أو غلاماً وهذه الرؤيا كما وصفها لأبيه ليست من رؤى الصبية ولا الغلمان وأقرب ما يراه غلام - حين تكون رؤياه صبيانية أو صدى لما يحلم به - أن يرى هذه الكواكب والشمس والقمر في حجره أو بين يديه يطولها. ولكن يوسف رآها ساجدة له، متمثلة في صورة العقلاء الذين يحنون رؤوسهم بالسجود تعظيماً. والسياق يروي عنه في صيغة الإيضاح المؤكدة: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ: يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ثم يعيد لفظ رأى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ لهذا أدرك أبوه يعقوب بحسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأنًا عظيماً لهذا الغلام. لم يفصح هو عنه ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك ولا تظهر بوادره إلا بعد حلقتين منها. «أما تمامه فلا يظهر إلا في نهاية القصة بعد انكشاف

الغيب المحجوب. ولهذا نصحه بألّا يقص رؤياه على إخوته خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير - غير الشقيق - فيجد الشيطان من هذا ثغرة في نفوسهم، فتمتلئ نفوسهم بالحقد، فيدبروا له أمراً يسوؤه: ﴿قَالَ: يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.. ثم علل هذا بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ومن ثم فهو «يوغر صدور الناس بعضهم على بعض ويزين لهم الخطيئة والشر» (قطب، ١٤١٢: ٤/١٩٧١) وبهذا عقب يعقوب ﷺ على ذكر ابنه رؤياه وفي قوله هذا ما قد يثير في نفس يوسف ﷺ حقداً على إخوته وكرهية لهم، فأراد أبوه أن ينسب أسباب الكيد إلى عداوة الشيطان للإنسان ليؤكد ليوسف ﷺ أن كيد إخوته له ليس صادراً عن طبع فيهم وسجية، بل إنه من وساوس الشيطان، فيدفع بذلك ما قد يثار في نفس يوسف ﷺ على إخوته وجاء ذلك في قوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (يوسف/٥). ممّا يجدر بالانتباه والتنويه هو أنّ يوسف ﷺ عاش حياة فكر وتأمّل وعلم، وهذا هو الذي أراد الله ليوسف أن يبلغه من خلال رؤية البرهان الإلهي، وهو الذي أحسن النية، وأحسن صنعاً، وصار في الطريق المستقيم. من هنا بدأت عملية إغراء الشيطان وغرس مكامن الحسد والحقد والغش في نفوس إخوة يوسف ﷺ، فجال الشيطان بين هؤلاء الإخوة كي يوقع بينهم الحسادة والحقد. فيمكن القول أن معاناة يوسف ﷺ بدأت من هنا وحركت كل الضغوط لتضعف إرادته حتى تسقطها أمام الصعوبات القصوى والأحداث الطارئة والغير متوقعة له في سنّ المراهقة التي تضيع فيها المشاعر في أجواء العاطفة ويلتهب فيها الجسد في نيران الأحاسيس.

المشهد الثالث: تأمر إخوة يوسف ﷺ عليه للتخلص منه:

يتمثل في قوله تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (يوسف/٩-١٠) هناك ثلاثة آراء، إذن قتل يوسف ﷺ أو طرحه أرضاً أو إلقاؤه في غيابات الجب. ولا تشير الآية الشريفة إلى الطريقة التي أجمعوا عليها من تلك الثلاثة المذكورة ولا إلى القرار الذي توصلوا إليه، بل انتهى الأمر بهم في هذا المجلس حسب ما جاء في الآية عند حدود طرح الآراء والتشاور الذي لم يأت من بعده اتفاق نهائي أو إجماع مطلق حسب نص الآية. وهذا الحذف يثير التساؤل حول ما ينوون فعله وقد تضاربت آراؤهم

واختلفت لنتكشف فيما بعد القرار الذي اتّخذوه في أثناء مشاوراتهم وأكدوه قبيل تنفيذه وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف/١٥).

ومن مواطن الحذف ما يتجلي في عدم ذكر العذر الذي سيعود به إخوة يوسف إلى أبيهم بعد التخلّص من أخيهم، إذ لا يعقل ألا يكون الأمر موضع اهتمام ومدار نقاش خلال مشاوراتهم، لكن الحذف جاء لإثارة الفكر والمحافظة على عنصر التشويق من جهة ومنعاً للتكرار من جهة أخرى، ذلك أن ادّعاءهم بأن الذئب أكل أخاهم سيأتي في موقف آخر عند لقاء بأبيهم وقد عادوا دون أخيهم ولا شك أن تأجيل ذكر ما اتفقوا عليه إلى هذا الموقف أكثر أهمية من ذكره في موضع سابق. إذن اتفق إخوة يوسف ﷺ على التخلّص منه وبيتوا عذراً يحملونه إلى أبيهم بعد أن يتم لهم ما خططوا له ولم يعد أمامهم إلا إقناع أبيهم بأخذ يوسف معهم ولذلك قالوا ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ (يوسف/١١) وقول إخوة يوسف ينطوي على معانٍ متعددة تشير في مجملها إلى طبيعة العلاقة بين الأب وأبنائه فيما يتعلّق بشأن أخيهم يوسف ﷺ وأنها علاقة مبنية على فقدان الثقة وعدم الاطمئنان، ففي قولهم: ما لك لا تأمناً، على قلة أفاضله، ما يدلّ أن إخوة يوسف ﷺ قد حاولوا أكثر من مرّة الانفراد بأخيهم وكان أبوهم يقف حائلاً بينهم وبين ذلك لشعوره أن ابنه يوسف لن يكون في مأمّن ما داموا منفردين به وقولهم يدلّ على حال دائمة، قائمة، مألوفة وتدلّ أيضاً على أنّهم يدركون بأنّهم ليسوا موضع ثقة أبيهم فيما يتعلّق بقضية يوسف على الأقل. لذلك تجدهم حين عودتهم دون أخيهم يقولون: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (يوسف/١٧) مؤكدين إدراكهم غياب الثقة عن نفس أبيهم تجاههم وما كان ردّ يعقوب ﷺ أمام ادّعاء أبنائه إلا أن: ﴿قَالَ بَلْ سَأَلْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف/١٨). وفي قوله تعالى حكاية عن يعقوب ﷺ: ﴿سَأَلْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يتخذ فعل التسويل معانٍ شديدة الاتساع؛ فيعقوب أراد أن يقول لأبنائه: لقد زينت لكم، فإنكم إنمّا مكرتم ابتغاء منفعة، تظنون واهمين أنكم ستحققونها بفعالكم، لكن أنفسكم خدعتكم وغرّتكم وصورت لكم الأمور على غير ما سنتهون إليه وهكذا قول يعقوب بإمكانه أن يعبر عن المعنى المراد بإيجاز شديد يسمّى في المصطلح البلاغي بإيجاز قصر وهو كثير في كلام العرب وفي القرآن الكريم كقوله تعالى:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة/١٧٩)؛ فإن معناه كثير، ولفظه يسير، يتضح أنّ المراد من الآية المباركة إنّما هو «أن الإنسان إذا علم أنه متى قُتل قُتل امتنع عن القتل، وفي ذلك حياته وحياة غيره، لأنّ (القتل أنفى للقتل) وبذلك تطول الأعمار، وتكثر الذرية» (الهاشمي، ٢٠٠٥: ١٠٢٥)؛ فكل هذه المعاني مكنونة في سياق الآية وكلماتها الجامعة.

والأحداث اللاحقة أكدت هذه الحقيقة، فما فعله إخوة يوسف ﷺ كان بقصد تغييره ليخلو لهم وجه أبيهم ولينفردوا بمحبته إياهم، لكن الأمر سار على غير ما أرادوا؛ إذ ظلّ أمر يوسف ﷺ يشغل بال أبيه مدة غيابة عنه حتّى ضجر منه من حوله فقال له: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (يوسف/٨٥).

المشهد الرابع: إخراج يوسف ﷺ من البئر بواسطة المسافرين:

نعود سريعاً إلى يوسف في الجبّ، لنرى المشهد الرابع في هذه من حلقات القصة الذي يتمثل في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَسَمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (يوسف/١٩) «لقد كان الجب على طريق القوافل، التي تبحث عن الماء في مظانه، في الآبار وفي مثل هذا الجب الذي ينزل فيه ماء المطر ويبقى فترة، ويكون في بعض الأحيان جافاً كذلك: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي قافلة سميت سيارة من السير الطويل كالكشافة والجوالة والقناصة ... ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾.. أي من يرد لهم الماء ويكون خبيراً بمواقعه.. ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾.. لينظر الماء أو ليملاً الدلو، ويحذف السياق حركة يوسف في التعلق بالدلو احتفاظاً بالمفاجأة القصصية للقارئ والسامع: ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾.. ومرة أخرى يحذف السياق كل ما حدث بعد هذا وما قيل وحال يوسف وكيف ابتهج للنجاة، ليتحدث عن مصيره مع القافلة: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً﴾ (قطب، ١٤١٢: ١٩٧٧/١).

بهذه الآية الشريفة يصف الله تعالى إخراج يوسف من البئر بواسطة بعض المسافرين من التجار وقد جاء ذكر إخراج يوسف من البئر موجزاً مختصراً؛ لكنه «إيجاز مذهل يغني عن السرد الطويل والشرح المفصّل؛ فقد تتالت الأفعال في الآية الكريمة تتالياً سريعاً، رشيقاً بالفاء العاطفة التي تفيد ترتيب حدوث الأفعال وتعاقبها دون فارق زمني يذكر وهذا معناه أن المسافرين لما صاروا على مقربة من البئر أسرعوا في إرسال من يجلب لهم الماء، (فأرسلوا واردهم)، (فأدلى دلوه)، وهنا تختفي (الفاء): (قال يا بشراي) ولم يقل الله تعالى (فقال: يا بشراي)، ذلك لأنّ البشرية تقتضي المفاجأة وهذا ما يتحقق بحذف الفاء لتأتي العبارة

المفاجئة للدلالة البشارة» (www.ouarsenis.com). وقوله تعالى عن المسافرين الذين وجدوا يوسف عليه السلام: (سيارة) وهي صيغة مبالغة من اسم الفاعل، تدلّ على أنّ شأنهم كثرة السير، فهم تجار تعودوا السير في هذا الطريق وهم بحكم كثرة سيرهم على هذا الطريق يعرفون البئر، يدلّ على ذلك سرعة إرسالهم الوارد حال اقترابهم من البئر - دلّت على ذلك الفاء العاطفة - دون وجود ما يشير إلى أنّهم وجدوا مشقة في اكتشاف هذا البئر وربما يوحي هذا بغير ما ذهب إليه بعض مفسري الآية من أنّ إخوة يوسف عليه السلام ألقوه في بئر بعيدة عن طريق المارّة وأن هؤلاء السيارة قد ضلوا طريق سفرهم فوجدوا البئر مصادفة.

ويأتي الإيجاز في صورة من أجمل صورته وأكثرها إحياء في قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً﴾ فأما قوله تعالى: "وَأَسْرُوهُ" «أي تعاملوا مع الأمر بسرية، أي اعتبروه بضاعة سرية وعزموا على بيعه رقيقاً. ولما لم يكن رقيقاً فقد أسروه ليخفوه عن الأنظار. ثم باعوه بثمان قليل: ﴿وَشَرُّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ﴾ لأنهم يريدون التخلص من تهمة استرقاقه وبيعه.. وكانت هذه نهاية المحنة الأولى في حياة النبي الكريم» (قطب، ١٤١٢: ١/١٩٧٧).

وأما قوله تعالى: "بِضَاعَةً" فيدلّ على أنّهم تجّار وربّما كانوا تجّار رقيق أو أنّ هذا النوع من التجارة كان رائجاً منتشراً في ذلك الوقت، فاستبشروا بعثورهم على الغلام كونه بضاعة لها قيمتها وأهميتها أو إلى غير ذلك ممّا اختزلته عبارة: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً﴾ من المعاني والدلالات الكثيرة التي تكتنز بإيحاءات تحتمل التأويلات الجمالية المتعددة المكنونة في طيات الكلمات القصار للآية. وهي التي تفهم من سياق الآية فالجو العام المسيطر على السورة كلّها؛ إذ إنّ القرآن الكريم إنّما اهتمّ بالكليات في الغالب الأعمّ واكتفى بالكليات والكلمات الجامعة، فلم يتطرق إلى جزئيات وخصوصيات الموضوعات القرآنية، لاسيّما في القصص النبوية التي تشتمل على المزيد من المعاني الجزئية المستورة في كوامنها. فمن هذا المنطلق، لابدّ لدارس القصص القرآنية أن تفجر طاقاتها اللغوية المكنونة فيها وتنتقل من كليات القصة القرآنية إلى جزئياتها فيسردها من دلالة السياق القرآني فالجو الحاكم على الآية.

المشهد الخامس: يوسف عليه السلام وعشق امرأة العزيز:

المشهد الخامس من حلقات القصة، يتمثل في مصر ويبدأ بعد أن وطأت قدماه أرض مصر، وابتاعه العزيز من السيّارة. وبداية قصته مع امرأة العزيز من الآية ٢١، فيقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ (يوسف/٢١).

ههنا محنة أخرى من نوع آخر وهي أشد وأعمق من المحنة الأولى كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشده، وقد أوتي حكماً وعلماً يستقبل بهما هذه المحنة الجارفة التي لا يقف لها إلا من رحمه الله. إنها محنة التعرض للغواية في جو القصور، وفي جو ما يسمونه «الطبقة الراقية والأرستقراطية» وما يفشاها من استهتار وفجور..

يشترى يوسف ﷺ رجل من مصر يعني العزيز ويوصي زوجته بأن تكرم مثواه، غير أن امرأة العزيز تجاوزت ذلك - لما بلغ أشده - إلى حدّ العشق والتعلق، فرغبت فيه وراودته عن نفسه وغلقت الأبواب فأبى وأصرّت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ...﴾ (يوسف/٣٢) «فأوجزت الآية حدث المراودة والاستعصام التي جاء ذكرها بشكل مفصل فيما تقدم من آيات السورة السابقة لهذه الآية. فكأنما هي قد أوجزت للنسوة الأحداث المجلطة بهذه الآية الموجزة التي قيلت على لسانها. وعبرت عن موقفها وموقفه المناقض لها بالرفض المصحوب بالإنكار في كلمة (استعصم) الدالة عليه. ومن ثمّ أوجزت الآية للقارئ جزءاً من القصة وهو حدث المراودة من قبلها، والرفض من قبله وذلك بقصر معنى المراودة والرفض على لفظة (استعصم) التي تدلّ على إرادتها لشيء قصدته في نفسها، في حين قابها هو بالرفض والإنكار» (www.diwanalarab.com) يقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (يوسف/٢٥) ورأى بعض المفسرين أن في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ بالمعنى السابق إيجاز قرآني بلاغي ولنا أن نضيف إلى ذلك أن الصيغة التي جاءت بها الكلمة «استبقا» تدلّ على تكلف الفعل وبذل المشقة في سبيله، إنّما تحمل دلالة بيانية أعمق، ففيها أن امرأة العزيز أسرعرت إلى الباب باذلة في ذلك جهداً مقترناً بعزيمة وإصرار على ارتكاب الفاحشة دون تراخٍ أو تهاون أو مرور خاطر بالنزول عند رغبتها. ويمكن أن تعبّر الصيغة عن حجم قوة الحركة، فنحن نقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ وصيغة الفعل المضعّف المفارقة لـ"أغلقت" تعني شدة الإحكام والتأكد الشديد من إغلاق الأبواب، وتعني ارتفاع الهمة، وهذا يبعث في الذهن صورة الدفع القوي للأبواب.

والجدير بالذكر أن القدامى لم يهملوا علاقة اللفظ بالمعنى، فالصيغة تتخذ معنى محدوداً لا يكون في غيرها، وكثيراً ما تحدثوا عن الكثرة الناتجة عن تضعيف عين الفعل» (أحمد ياسوف، ١٩٩٩: ١٥٥/١).

ولننظر إلى قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف: ٢٦-٢٧)، ولنتقف عند شهادة الشاهد و"الشاهد" أتت من المشاهدة وامرأة العزيز ويوسف ﷺ لم يكن معهما أحد ليكون شاهداً على ما حدث وجرى، ولعلّ الشاهد قد شهد موقف امرأة العزيز ويوسف ﷺ وقد ألفيا سيدها لدي الباب وذكر الشاهد قضية قدّ القميص تعني بالضرورة عدم رؤيته قميص يوسف ﷺ وقد قدّ من دبر وإلّا فلا معنى لشهادته. كيف خطرت له مسألة القميص إذن؟ أو لم يكن ممكناً ألا يكون يوسف ﷺ مرتدياً قميصاً في ذلك الموقف؟

الراجع - والله أعلم به - أن امرأة العزيز ذكرت قميص يوسف لتجعله دليلاً على مقاومتها إياه ومنعه من فعل الفاحشة ولم تُشر إلى الجهة التي قدّ منها وكأن الشاهد - وهو خارج الباب برفقة العزيز - قد سمع ذلك دون أن يرى يوسف، فرأى أن يجعل القميص دليل إدانة أو براءة وهنا تنبّه العزيز إلى هذه المسألة فعرف بها كيد زوجته وتأكد من براءة يوسف ﷺ مما اتهمته به زوجته. وهذا من وجوه الحذف البلاغي في القصة، إذ لم تشر الآية إلى أن امرأة العزيز ذكرت قدّ القميص كدلالة على براءتها والآية لم تذكر أيضاً مكان وجود الشاهد في هذا الموقف وأنّه كان يسمع ما يحدث وهو خارج الباب دون أن يرى... فهذا كله ممّا توحى به الآية الكريمة بإيجاز موجٍ يحتاج إلى شيء من التأمل والتدبر.

وكان ممكناً حسب البلاغة القرآنية اختزال هذا القول بالاكْتفاء بالجزء الأوّل منه، إذ يتضمن في ظلّ وجود الشرط معني جزئه الثاني، لكن ذكر جانب دون الآخر أو التفصيل في جانب والإيجاز في جانب آخر. ربّما يحمل دلالة على ميل الشاهد إلى الاحتمال الذي فصل فيه، لذا جاء قوله في الاحتمالين متساوياً من حيث عدد الكلمات، حرصاً منه على أن يكون دقيقاً في قوله، منطقيّاً في رأيه، حيادياً، عادلاً في سبيل الوصول إلى الحقيقة. ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (يوسف/٣٠)، إنّ قوله تعالى: ﴿قَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يدلّ على تسرّب الخبر من القصر وانتشاره على نطاق ضيق، لم يصل حدّ الشيعوع والعموم، فد«نسوة» جمع قلّة وهذا ما مكن امرأة العزيز من دعوة هؤلاء النسوة إلى قصرها. كما أن «نسوة في المدينة» تقليل لشأن هؤلاء النسوة؛ إذ جاء ذكرهنّ نكرة على عكس ما جاء في الآية نفسها بقولهم: (امرأة العزيز) وهذا يدلّ على أنّهن دونها شأنًا ومكانةً.

و«قد فسّر المفسرون القول في هذه الآية، فرأوا أن نسبتها إلى زوجة العزيز أدعى إلى استعظام الأمر، فهي متزوجة من جهة وهي من ذوات السلطان والنفوذ فأمرها أعظم سوءاً من سواها» (الأقرع: www.quran-m.com).

(تراود): مضارع يدلّ على التجدد والاستمرارية أي كان هذا وما يزال دأبها وديدنها حتى لحظة قولهنّ، فهي تفعل ذلك بإلحاح وإصرار واستمرار.

(فتاها): عبدها أو مملوكها وهذا أكثر تشنيعاً وتشهيراً فسمّيت بـ«امرأة العزيز» أي ذات النفوذ والسلطان وسمي من تراوده عن نفسه بـ«فتاها» تذكيراً بتبعيته لها ومملوكيتها له. (قد شغفها حباً): أي وصل حبه سويداء قلبها وتمكن منه.

(إنّا لنراها في ضلال مبين): وجاء قولهن هذا مؤكداً بمؤكدين زيادة في استنكارهنّ فعلها وأنه بعيد كلّ البعد عن الصواب والرأي السديد... فتأمل كم حملت هذه الكلمات القليلة الموجزة من معان ودلالات!

أما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ (يوسف/٣١)، وفي قوله تعالى: ﴿آتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ (يوسف/٣١)، إشارة إلى أنّها وضعت لهن أصناف الفواكه وسواه، ممّا يحتاج أكله إلى استخدام السكين. وقوله تعالى: ﴿سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ يدل على ما قالتها النسوة قد تناقلته الألسن كثر أم قلت، حتى تنهى الخبر إلى سمعها. فسماع الأمر غير السماع به، فالسماع بالأمر يعني أن ثمة واسطة أو ناقلاً بين القائل والسماع، بين المرسل والمتلقي وهذا يؤكد تناقل الخبر ولو على نطاق محدود ويفسّر في الوقت ذاته علة سجن يوسف ﷺ رغم رؤية الدلائل على براءته؛ إذ أخذ الخبر ينتشر بين الناس حتى غدا سجنه أدعى إلى إلصاق التهمة به وتجريمه وبذلك بيدوا الأمر محاولة اعتداء عبد على سيده، نال جزاءه سجناً.

المشهد السادس: خروج يوسف ﷺ من السجن:

وهذه هي «المنحة الأخيرة من محن الشدة في حياة يوسف فكل ما بعدها رخاء، وابتلاء لصبره على الرخاء، بعد ابتلاء صبره على الشدة. والمنحة في هذه الحلقة هي محنة السجن بعد ظهور البراءة. والسجن للبريء المظلوم أقسى، وإن كان في طمأنينة القلب بالبراءة تعزية وسلوى، ويختصر السياق ما كان من أمر يوسف في السجن، وما ظهر من صلاحه وإحسانه، فوجه إليه الأنظار، وجعله موضع ثقة المساجين، وفيهم الكثيرون ممن ساقهم سوء الطالع مثله للعمل في القصر أو الحاشية» (قطب، ١٤١٢: ٤/١٩٨٧).

يخرج يوسف عليه السلام بعد تأويل رؤيا رآها الملك وقد جهل تأويلها أصحاب هذا العلم ممن يحيطون به ولما أن علم الملك بقصة يوسف مع النسوة وعلم ببراءته ممّا اتهم به. ويستدعيه الملك ليكون له شأن معه، هو الذي ستعرفه في هذه الحلقة الجديدة.

هذا الدرس يبدأ بأخر فقرة في المشهد السابق. «مشهد الملك يستجوب النسوة اللاتي قطعن أيديهن - كما رغب إليه يوسف أن يفعل - تمحيصاً لتلك المكاييد التي أدخلته السجن، وإعلاناً لبراءته على الملأ، قبل أن يبدأ مرحلة جديدة في حياته وهو يبدوّها واثقاً مطمئناً، في نفسه سكيته وفي قلبه طمأنينة وقد أحس أنها ستكون مرحلة ظهور في حياة الدولة، وفي حياة الدعوة كذلك. في حسن أن يبدأها وكل ما حوله واضح، ولا شيء من غبار الماضي يلاحقه وهو بريء. ومع أنه قد تجمل فلم يذكر عن امرأة العزيز شيئاً، ولم يشير إليها على وجه التخصيص، إنما رغب إلى الملك أن يفحص عن أمر النسوة اللاتي قطعن أيديهن، فإن امرأة العزيز تقدمت لتعلن الحقيقة كاملة: (قطب، ١٤١٢: ٤/٢٠٠٤)

﴿الآن حَصَحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ، وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وفي هذه الفقرة الأخيرة تبدو المرأة مؤمنة متحرجة، تبرئ نفسها من خيانة يوسف في غيبته ولكنها تتحفظ فلا تدعي البراءة المطلقة، لأن النفس أمارة بالسوء - إلا ما رحم ربي - ثم تعلن ما يدل على إيمانها بالله - ولعل ذلك كان اتباعاً ليوسف - ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وبذلك يسدل الستار على ماضي الألام في حياة يوسف الصديق. وتبدأ مرحلة الرخاء والعز والتمكين.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ، قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ مَا كَفَرْنَا بِهِ أَلَسْ بِاتِّبَاعِكُمْ لَقَائِكُمْ بَيْنَكُمْ أَتَمَنَّا وَكُنَّا بِتَقْوَاهُمْ حَاتِئِينَ﴾.

لقد تبينت للملك براءة يوسف، وتبين له معها علمه في تفسير الرؤيا، وحكمته في طلب تمحيص أمر النسوة، كذلك تبينت له كرامته وإباؤه، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن، ولا يتهافت على لقاء الملك. وأي ملك؟ ملك مصر! ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم في سمعته، المسجون ظلماً، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله قبل أن يطلب الحظوة عند الملك.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ (يوسف/٥٤)، وفي هذا المشهد يحذف السياق جزئيات تفصيلية في تنفيذ الأمر. «فحذفت جملة (فأتوا به) إيجازاً ليدل على أن زمن الأمر بحضوره وزمن الحضور خطابه هو زمن واحد وليس يفصل بينهما بفواصل، ومثلما دل على سرعة المجيء لأهميته، دل على سرعة امتثاله للأمر هذا بعد أن تمت براءته، كما دل الحذف على أن الملك كان متشوقاً لرؤيته والتكلم معه لأن تعبيره لرؤيا الملك قد أدهشته» (www.diwanalarab.com). وفي قوله تعالى حكاية عن الملك (أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي) تستوقفنا كلمة (أَسْتَخْلِصْهُ) لتحويلنا إلى جملة من المعاني، كما وردت في معاجم اللغة، أستخلصه: أي أنجيه من كربته أو مصيبته واختاره واصطفاه واختصه: اجعله خالصاً لي. واستخلصه: مبالغة من (أخلصه) تدل على شدة حرص الملك على اصطفائه يوسف ﷺ ليكون من خاصته.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ، قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف/٥٤-٥٥)، قد حذفت أجزاء من الكلام، أي لما كلمه الملك أعجب بحسن منطقته ورجاحة عقله واتزانه مما زاده إعجاباً به، فارتقى بعلاقته بيوسف ﷺ من العلاقة الخاصة بجعله مقرباً إليه، إلى أن يجعل له مكانة مرموقة ورتبة عالية سامية في دولته. وقوله: إنني حفيظ، جاءت رداً على قول الملك (مكين أمين) أي إنني أهل للثقة وحافظ للأمانة، ثم أضاف على ذلك قوله: (عليم) أي عالم بإدارة الأمور المالية في الدولة، بما يضمن تحقيق العدل والمساوات بين الرعية. ويبدو أن ما يشبه الوزارة المالية في ذلك الحين، لم تكن قادرة على إدارة شؤون الدولة الاقتصادية، فأراد يوسف ﷺ أن يشغل هذا المنصب لدرأته بذلك وعلمه به. وليس أدل على ذلك من قول يوسف ﷺ عند تأويل رؤيا الملك: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يُعْصِرُونَ﴾ (يوسف/٤٧-٤٩)، نلاحظ أن يوسف ﷺ لم تكتف بتأويل الرؤيا بل ضمن ذلك إيجاد الحلول، ولو كان من يدير الشؤون الاقتصادية قادراً على إيجاد الحلول، لوقف يوسف ﷺ عند حد تأويل الرؤيا وترك أمر الحل إلى أصحاب الشأن. ولعل ما طرحه يوسف ﷺ حلاً للمشكلة قبل وقوعها كان سبباً في جعل الملك أكثر إيماناً بأهلية يوسف ﷺ لهذا المنصب... وإذا صح ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن الرجل الذي اشترى يوسف ﷺ (أي العزيز) هو من كان يشغل منصب وزير المالية في ذلك الوقت، فإن في ظلمه يوسف ﷺ وسجنه إياه رغم تأكده من براءته، دليل كاف على أنه ليس أهلاً لذلك المنصب؛ إذ لن يكون وهو على هذه الحال عادلاً بين الرعية.

المشهد السابع: يوسف عليه السلام و لقاء إخوته في مصر:

أما فعل الجذب فقد أبرزه السياق في مشهد إخوة يوسف، يجيئون من البدو من أرض كنعان البعيدة يبحثون عن الطعام في مصر. ومن ذلك ندرك اتساع دائرة المجاعة، كما ندرك كيف وقفت مصر - بتدبير يوسف - منها، وكيف صارت محط أنظار جيرانها ومخزن الطعام في المنطقة كلها. وفي الوقت ذاته تمضي قصة يوسف في مجراها الأكبر بين يوسف وإخوته وهي سمة فنية تحقق هدفاً دينياً في السياق: ﴿جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ، وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُم، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ، فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ (يوسف/٥٧-٦٠).

إن يوسف عليه السلام أبي إلا أن يعودوا ليحضروا أخاهم «بنيامين»^١ حتى ينال حصته، فعاد إخوته وراودوا عنه أباه حتى جاؤوا به بعد أن أعطوا أباهم ميثاقاً بأن يحفظوا أخاهم بنيامين من كل سوء ما لم يغلبوا على أمرهم: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (يوسف/٦٩)، ولننظر في قوله تعالى: ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ كم فيه من إيجاز في الألفاظ وغني بالمعاني والدلالات. فمن ينظر في كلمة (آوى) في معاجم اللغة سيجد أنها تأتي بمعنى: أعاد وضم وأحاط وأنزل عنده وأشفق ورحم ورق وتآوت الطير: تجمعت بعضها إلى بعض. وتآوى الجرح: أي تقارب للبرء (ابن منظور، ١٩٩٦: ١٧٩/١).

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (يوسف/٧٠)، إن الآية تشير إلى أمر يثير الاستغراب: إذ لا يعلم المتلقي أية حاجة تلك دفعت يوسف عليه السلام إلى إلصاق تهمة السرقة بأخيه. إذن ثمة أمر كان قد أضمره يوسف عليه السلام بوضع الصواع في رجل أخيه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ (يوسف/٧٦) وليس في نص الآية الكريمة ما يشير إلى أن يوسف عليه السلام كان قد أخبر أخاه بما ينوي فعله، حتى لا يفاجأ أو يفزع من وجود الصواع في رحله أمام مرأى من إخوته وبعض خاصة يوسف عليه السلام. لقد أراد يوسف عليه السلام بفعله أن يستبقي أخاه بنيامين، فأحتال لذلك ودبر، لكن ما فعله يوسف عليه السلام لم يكن في حقيقته إلا وحيماً من الله سبحانه

١. لم يرد اسم "بنيامين" في القرآن وإنه مأخوذ من الأخبار والروايات.

وتعالى: ﴿كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (يوسف/٧٦)، وحاول إخوة يوسف ﷺ العودة بأخيهم بنيامين إلى أبيهم وذهبوا في إقتناع يوسف ﷺ كل مذهب، لكنهم لم يفلحوا: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسُّوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ (يوسف/٨٠)، تنعكس هذه الآية الشئ الكثير من الإيجاز والبلاغة إذ تصوّر لنا «حال الأخوة عندما تغلب اليأس عليهم بعد أن رفض النبي يوسف ﷺ أخذ أحدهم مكان أخيهم (بنيامين) كما طلبوا منه، فانعزلوا وانفردوا بأنفسهم يناجي بعضهم بعضاً في كيفية مواجهتهم. لأبيهم وبنيامين ليس معهم. فقد عبّرت الآية بألفاظها الموجزة عن المعاني التي تقدّم ذكرها وصوّرت لنا بإيجاز حال مشاورتهم مع بعضهم بعضاً في قلب أمرهم. ألم يكن بهذا الإيجاز تصويراً. بليغاً لحال حيرتهم وتشاورهم في أمرهم. باقتصار هذه المعاني المتكاثرة على هذه الألفاظ والمكونة للآية الكريمة؟» (www.diwanalarab.com). فألفاظ هذه الجملة كلّها من هذا الباب، وأجزلها قوله تعالى: «اسْتَيْسُّوا» وأفصحها قوله سبحانه: "خَلَصُوا نَجِيًّا"، وقلّ أن تجتمع الفصاحة والبلاغة في جملة من هذا الباب إلا في هذه الجملة وكأنما يخلو القرآن من أمثال هذه المفردات، وكأنما أحصاها، فاستوفى السور كلّها، ومن ثمّ أطلق حكمه هذا الذي يعدّ أشدّ تعميماً من حكم أسلافه، وما هي إلا إشارة عابرة كانت له في كتابه. كما أن استخدام صيغة المبالغة من يئسوا (استيسسوا) فيه التزام بما عاهدوا عليه أباهم حين أعطوه موثقاً من الله أن يحفظوا أخاهم ما لم يغلبوا على أمرهم ولذا بذلوا في سبيل ذلك كلّ جهد واتبعوا كل وسيلة» (ابن ابي الأصبغ، لا تا: ٢٨٨). وتمضي الأحداث ليكتشف إخوة يوسف ﷺ أن العزيز ما هو إلا ذلك الغلام الصغير الذي ألقوه في غيابة الجب منذ سنوات بعيدة. فاعتذروا إليه وحملوا قميصه وعادوا به ليلقوه على وجه أبيهم فيرتدّ إليه بصره بعد أن فقدته حزناً على فراق ولديه. وينتقل الجميع إلى مصر ليجمع الله تعالى يعقوب ﷺ بابنه يوسف ﷺ بعد غياب طويل: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ﴾ (يوسف/٩٩)، ها هي كلمة (آوي) تطرح من جديد، تتضمن معاني التآلف والتّأم الجرح وتحمل في طياتها معاني الرحمة بأبويه والعطف عليهما وقد أصبحا الطاعنين في السن.

المشهد الثامن: دعاء يوسف ﷺ البليغ في هذه السورة:

وهنا تنتهي قصة يوسف ﷺ بدعائه فيدعو الله دعاء الإنسان العارف ببشريته الذي لا يفترّ بعصمته فيتوكلّ المزيد من العناية: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ

فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿يوسف/١٠١﴾، فكم من المعاني العظيمة التي اشتمل عليها الدعاء بإيجاز شديد كما ورد في الآية الكريمة:

يقول يوسف عليه السلام مناجياً ربه:

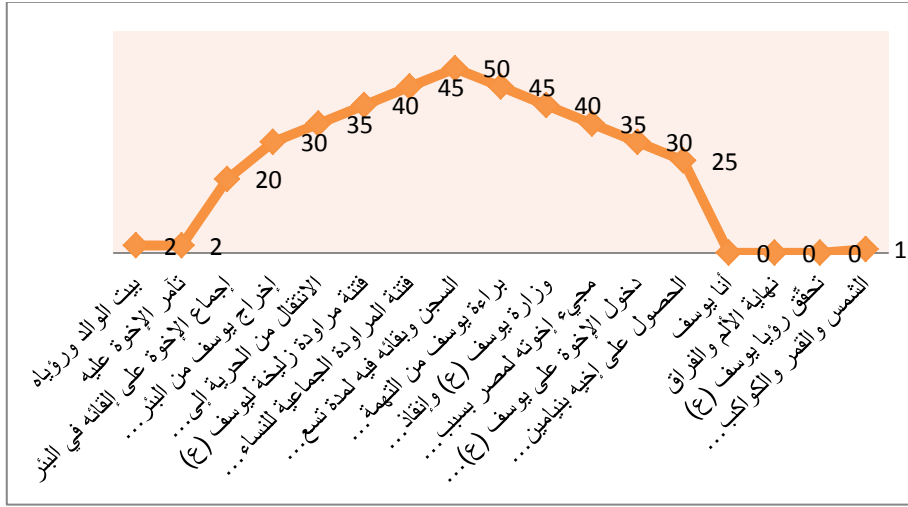
١. يبدأ دعاءه شاكراً لله معترفاً بفضلته بسبب أمران نالهما من ربه في الحياة الدنيا وهو الذي أعطاه تلك السيادة: ﴿آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.
٢. ثم يقرّ بعبوديته لله تعالى ويثنيه بصفات القدرة والخلق: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والألوهية والوحدانية: ﴿أَنْتَ وَلِيُّ فِي الدُّنْيَا﴾.
٣. في النهاية يطلب سعادة آخرته ويدعو الله أن يتوفاه مسلماً ويلحقه بالصالحين: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

هكذا إن هذا الإيجاز المتحدّث عنه في السطور السابقة من المباحث الأولى ومن القضايا الجمالية في هذه السورة الجميلة لا تقلّ قيمتها وأهميتها.

لا يفوتنا أنّ في قصة يوسف «ألوان من الشدائد. في الجب وفي بيت العزيز وفي السجن. وألوان من الاستيئاس من نصرة الناس. ثم كانت العاقبة خيراً للذين اتقوا - كما هو وعد الله الصادق الذي لا يخيب - وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين. فيها عبرة لمن يعقل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. وهكذا يتوافق المطلع والختام في السورة، كما توافق المطلع والختام في القصة. وتجيء التعقيبات في أول القصة وآخرها، وبين ثناياها، متناسقة مع موضوع القصة، وطريقة أدائها، وعباراتها كذلك. فتحقق الهدف الديني كاملاً، وتحقق السمات الفنية كاملة، مع صدق الرواية، ومطابقة الواقع في الموضوع» (قطب، ١٤١٢: ٢٠٢٧/٤).

وقد بدأت هذه القصة الجميلة وانتهت في سورة واحدة، لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء. فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً، ويوما بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة. فلا تتم العبرة بها - كما لا يتم التنسيق الفني فيها - إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومرآحها حتى نهايتها. وإفراد حلقة واحدة منها في موضع لا يحقق شيئاً من هذا كله كما يحققه أفراد بعض الحلقات في قصص الرسل الآخرين. كحلقة قصة سليمان مع بلقيس أو حلقة قصة مولد مريم أو حلقة

قصة مولد عيسى أو حلقة قصة نوح والظوفان ... إلخ فهذه الحلقات تقي بالغرض منها كاملاً في مواضعها. أما قصة يوسف فتقتضي أن تتلي كلها متواليه حلقاتها ومشاهدها، من بدئها إلى نهايتها، وصدق الله العلي العظيم: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، حيث بإمكاننا أن نعبر عن أحداث والصراعات المتتابعة في هذه القصة الجميلة بالمنحني التالي تقريباً:



إذ أن الأحداث الموجودة في هذه القصة مقسمة إلى حلقات. وكل حلقة منها تحتوي جملة مشاهد تتفاوت شدة وضعفاً مع كونها مرتبطة برابط سببي، حيث بدأت القصة برؤية يوسف ﷺ وانتهت بتأويلها إلا أن في وسطها أحدثت حوادث مترابطة كثيرة كما نشاهده في المنحني. إن هذا الإيجاز البليغ المنعكس في السورة له حلقات متتابعة مترابطة برابط سببي يغني عن السرد المحذوف، بحيث سمى بإيجاز القصر في المصادر البلاغية (يراجع: الجرجاني، ١٩٩١: ١٢٢)، وهذا الإيجاز ضربان: إيجاز القصر وإيجاز الحذف. أما إيجاز القصر فهو تقليل الألفاظ وتكثير المعاني دون أن يكون في العبارة حذفاً، وأمثلة كثيرة في كلام العرب وفي القرآن الكريم (مصطفى، ١٩٩١: ١٤/١٧٧). يجدر بنا التذكير هنا بأن غالبية الحذفيات في سورة يوسف ﷺ تتمثل في ضروب الإيجاز بالقصر، والسياق هو الذي يقتضي ذلك الحذف البلاغي. وهذا الحذف إنما جاء به خدمة لسياق السورة لكي يبقى متماسكاً متلاحماً والذي يقرأ هذه السورة المباركة ويتوغل في أعماق جزئيات حوادثها يمكنه أن يدرك الجملات المحذوفة ويستنبطها من دلالة السياق النصي عليها. ختاماً، لا يفوتنا أن هذا الحذف السياقي زاد من دقة المعنى وجماله وقوته في سورة يوسف ﷺ.

النتائج

لقد تمخض هذا المقال عن نتائج أهمها كالتالي:

١. قد تنوع أسلوب الحذف في سورة يوسف عليه السلام وهذا الحذف شكّل ظاهرة أسلوبية بارزة يكمن وراءها أسرار بلاغية ومعانٍ ثانية باعتبار سياقها النظمي.
٢. إن قصة يوسف عليه السلام جاءت في السورة عبر مجموعة من المشاهد التي ترتبط فيما بينهما ترابطاً عضوياً، فالانتقال من موقف إلى موقف آخر في القصة يتمّ - غالباً - دون رابط سرديّ غير أنّ الارتباط برابط السببية بين المشاهد، يفني عن السرد المحذوف ويقوم بدوره ويخلق في الوقت ذاته حالة من الحركية التعبيرية.
٣. يتّضح جلياً في سورة يوسف عليه السلام الوحدة العضوية؛ إذ تكون القصة نسيجاً قصصياً محكماً متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك، من أولها إلى آخرها، بحيث تقضي كلّ جزئية إلى التي تليها.
٤. إنّ قصة يوسف شكلت حلقات مترابطة ضمن سلسلة وقائع سببية وكل حلقة تحتوي جملة مشاهد. والسياق يترك فجوات بين مشهد وآخر يملؤها تخيل القارئ وتصوره، ويكمل ما حذف من حركات وأقوال، مع ما في هذا من تشويق ومتاع.
٥. إنّما البلاغة في سورة يوسف عليه السلام ليست مقصورة على الحذف وحده، بل يعثر الدارس - سورة يوسف عليه السلام - على أمثلة يرى أنّ الذكر فيها أظهر للمعنى من الحذف.
٦. إن من خصائص قصة يوسف عليه السلام أنها ذكرت في مكان واحد من القرآن، على خلاف قصص الأنبياء التي ذكرت على شكل فصول مستقلة في سور متعددة من القرآن الكريم.
٧. كل الجمل المحذوفة من الآيات هي جمل متممة لمعاني الآيات ولكن لا داعي لذكرها؛ وذلك لدلالة السياق المتفق عليها دلالة واضحة. والسياق هو الذي يقتضي ذلك الحذف لها؛ لأنّها لو ذكرت لما أعطت هذه الأغراض والمعاني التي أعطتها بحذفها.
٨. إن قصة يوسف عليه السلام في القرآن هي قصة الشخصية والأحداث معاً؛ فهي لا تسجل واقعاً فحسب، بل تنتصر للقيم الإنسانية الجديرة بالخلود، إنا تنتصر للإيمان وللصبر وللعفاف وللأمانة وللإخلاص والطهر وقد قام بالأدوار فيها شخصيات متباينة في السن وفي المكانة الاجتماعية ولكل منها طابعها الخاص وفق التربية والتجارب التي مرت بكل منها؛ كالبراءة والحكمة والحسد والعلم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. ابن مشيش، حسين (٢٠٠٨م). أثر القرآن الكريم في النثر الجزائري الحديث. رسالة الدكتوراه الدولة في الأدب العربي الحديث، تحت إشراف الدكتور خذري علي، جامعة باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها.
٢. أبو شادي، عبد السلام مصطفى (١٩٩١م). الحذف البلاغي في القرآن الكريم. بيروت: مكتبة القرآن للطباعة والنشر.
٣. الأفريقي المصري، محمد بن مكرم بن منظور (١٩٩٦م). لسان العرب. تحقيق: عبد الله على الكبير؛ ومحمد أحمد حسب الله؛ وهاشم محمد الشاذلي. القاهرة: دار المعارف.
٤. الأقرع، ياسر محمود. الإيجاز التربوي في سورة يوسف ﷺ: <http://quran.com/quran/printarticles/2172>
٥. _____ الإيجاز البلاغي في قصة النبي يوسف ﷺ: <http://www.ouarsenis.com/>
٦. بديدة، يوسف (٢٠٠٨م). بلاغة الإيجاز في الشعرية العربية. رسالة الماجستير في الأدب العربي، جامعة الحاج لخضر، الجزائر.
٧. البيلي البدوي، أحمد أحمد عبد الله (٢٠٠٥م). من بلاغة القرآن. القاهرة: نهضة مصر.
٨. تفسير سورة يوسف: <http://www.noo-problems.com>
٩. الجرجاني، عبد القاهر (١٩٩١م). أسرار البلاغة. قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي.
١٠. دهداري، فراس؛ ميسا كاظم دهداري. إيجاز، إطناب ومساوات در سوره يوسف ﷺ، ديوان العرب: <http://www.diwanalarab.com>
١١. الرافي، مصطفى صادق (١٩٩٠م). إعجاز القرآن والبلاغة والبنويّة. القاهرة: دار المنار.
١٢. زيتون، على مهدي (١٩٩٢م). إعجاز القرآن وأثره في تطوّر النقد الأدبي. بيروت: دار المشرق.
١٣. الطباطبائي، محمد حسين (لا تا). تفسير الميزان. مصدر الكتاب: موقع الكوثر: <http://www.al-kawthar.com/maktaba/list2.htm>

١٤. الطبرسي، فضل بن الحسن (لا تا). *تفسير مجمع البيان*. قم: المجمع العالمي لأهل البيت.
١٥. عباس، دلال (٢٠٠٠م). *القرآن والشعر*. بيروت: دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع.
١٦. القرطبي، أحمد عبدالعليم البردوني (لا تا). *الجامع لأحكام القرآن*. ط٢، القاهرة: دار الشعب.
١٧. قطب، سيد (١٤١٢هـ). *في ظلال القرآن*، ط١، بيروت: دار الشروق.
١٨. قطب، سيد (١٩٥٩م). *التصوير الفني في القرآن الكريم*. القاهرة: دار المعارف.
١٩. قطب، محمد (٢٠٠٢م). *القصة في القرآن الكريم، مقاصد الدين وقيم الفن*. القاهرة: دار قباء.
٢٠. *مجلة اللغة العربية وآدابها*، جامعة طهران، السنة ١٠، العدد ٤.
٢١. مشكين فام، بتول (١٣٨٨ش). *البحث الأدبي مناهجه وأصوله*. ط٥، تهران: سمت.
٢٢. النوافعة، جمال فلاح (٢٠٠٨م). *أثر القرآن الكريم في الشعر الفلسطيني الحديث*. رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة مؤتة.
٢٣. واقف زاده، شمسي (١٤٣٦هـ). *دواعي "الحذف" فوائده، شروطه وأقسامه في النحو والبلاغة*.
٢٤. الهاشمي، أحمد (٢٠٠٥م). *جواهر البلاغة*. تحقيق سليمان الصالح. بيروت: دار المعرفة.
٢٥. ياسوف، أحمد (١٩٩٩م). *جماليات المفردة القرآنية*. ط٢، دمشق: دار المكتبي.